

تستمد الغالبية من سكان الغرب أولى انطباعاتها حول الأمور الدينية في منطقة الشرق الأدنى من التوراة.

ولذلك ينبغي علينا أن نُنَبِّه إلى أن كل ما قيل عن هذا الموضوع من التوراة فيه الكثير من التحامل.

فالأنبياء الإسرائيليون مع ما لديهم من صفات الخوف من الله إلا أنهم كانوا قادرين -عن قصد- على التضليل مع شيءٍ من حسن النية.

فالقضية التي نشير إليها هي الصورة التي تتمثل وجهة النظر في منطقة ما بين النهرين حول آلهتهم، تلك الصورة التي نحصل عليها من أقوال ما يدعى أشعيا الثاني (نبي-وهو المسؤول عن السفر ٤٠-٥٥ من كتاب أشعيا):

أولئك الذين يصرفون الذهب من أكياس دراهمهم، ويزنون الفضة في الميزان.

فهم يستأجرون أحد صانعي الذهب ويبدلون الفضة إلى ذهب

وبعدها يخرون على الأرض وينهمكون في شؤون العبادة

وهم يحملون آثامهم فوق أكتافهم وينقلونها

ويضعونها في أمكنتها حيث تبقى هناك

وليس من الممكن أن تتحرك من مكانها.

(أشعيا ٤٦-٦١-٧)

وهنا نجد التباسين حول الدين في منطقة ما بين النهرين:

الأول: وهو أن هؤلاء السكان فكروا بالإله ليس إلا صورة فحسب.

والثاني: هو أن المتعبدين صوروا تلك الآلهة بالصورة التي تحلو لهم وتروق

لأخيلتهم.

ولكن الحقيقة أن كلتا الفكرتين خاطئتان.

لقد كان هناك صور للآلهة وهذا أمر صحيح وقد اعترف بهذه الصور بأنها مجرد صور وليست هي الحقيقة الإلهية المطلقة.

حقاً إن باستطاعة الناس الوصول إلى الآلهة من خلال صورهم، ولكن ما يدعى يَهُوه عند الإسرائيليين من الممكن الوصول إليه من خلال تابوت العهد، ولم تعد الصورة الإلهية بالنسبة لأحد أفراد منطقة ما بين النهرين هي جوهر إله أكثر مما كان تابوت العهد الجوهر بالنسبة إلى يَهُوه، أو القلب الذي يقدهسه (الشخص الكاثوليكي بالنسبة للمسيح) وكانت الصورة الإلهية بالنسبة للبابليين القدماء أو الآشوريين ما هي إلا النقطة التي من الممكن الاتصال بالإله عن طريقها، فهي النقطة التي ينكشف من خلالها الحضور الإلهي ولكنها لم تكن لتمثل الكمال الإلهي بذاته، وقد كان اللاهوتيون القدامى صريحين حول هذه الأمور. إذ يقول أحد النصوص:

((إن مردوخ هو الإله الأعظم في بابل)) مع أنه كان من الآلهة المعبودة في آشور، يقول النص:

(العالم السفلي هو الحوض الذي تغتسل فيه، وأعالي السماوات هي الطاسة التي توضع فيها المنجدة التي تستعملها) وهكذا فإن الإله الذي يمتلك مثل هذه الأهمية الفلكية ليس من الممكن أن ينحصر داخل تمثال، وفوق ذلك فإنه بغض النظر عن مطابقة الآلهة العظيمة بصورها إلا أن هذه الآلهة كانت تحظى بالاحترام والتبجيل ليس لكونها صوراً فحسب ولكن لكونها رموزاً. هكذا نرى أحد المتعبدين في إحدى النصوص راکعاً أمام مذبح وضع فوقه سيف.

ونرى في إحدى الوثائق القضائية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ما يشير إلى أن أحدهم قد قام بأداء القسم أمام خنجر الإله آشور.

هنالك مظهر في ديانة ما بين النهرين من الممكن أن يتعرض للسخرية من قبل أنبياء الإسرائيليين وهو تعدد الآلهة.

فقد عدت النقوش التي تذكر ملوك الآشوريين عدداً من الآلهة، مثلاً آشور السيد العظيم والد الآلهة، وأنوما نليل، وايا-اوسن-وشمش، وآرات، ومردوخ، ونابو، ونيرجال، وعشتار، والسبعة هم الآلهة العظماء والذين يقفون إلى جانب الملك.

ولكن لم تكن مثل هذه القوائم تحتوي سوى كمية ضئيلة من مجمع الآلهة الكامل الذي اعترف به اللاهوتيون القدماء.

وإن ما ذكره أرميا عن يهوذا لم يكن سوى نوع من التهكم بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين وذلك عندما يقول:

((إن عدد آلهتكم يبلغ بقدر عدد خدمكم)).

ففي منطقة ما بين النهرين نجد أن كل مدينة كان لها آلهتها الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة مظاهر سواء كانت في الحياة المادية أو في المجتمعات البشرية، كل واحد منها كان له ما يحميه من القوى الإلهية.

فقد كان هناك على سبيل المثال آلهة لصنع الخمر وآلهة للبناء.

وهكذا يجد الباحث الحديث الذي يذهب إلى منطقة ما بين النهرين القديمة أنهم يعددون ألوفاً من الآلهة في المجمع الإلهي ولكن لم تكن هذه القائمة الضخمة انعكاساً للمعتقدات الدينية العامة ولا انعكاساً لمعتقدات أي فرد من الأفراد، بل كانت من بنات أفكار الباحثين القدماء الذين حاولوا تجميع عدد من مجموعات الآلهة في محاولة منهم أن ينظموها ضمن نوع ما من أساليب التنظيم، وفيما عدا الدوائر المختصة بالعلماء الباحثين لم يعتبر أي إنسان لا في بابل ولا في آشور أن العالم يسير ضمن هذا المجتمع الضخم المنظم الرسمي من الآلهة.

ولا شك أن الإنسان الآشوري العادي كان يرى نفسه محاطاً بأصناف متعددة من القوى الخارقة للطبيعة.

ولكن لم تكن هذه العودة للقوى الخارقة هي الهيكل الرسمي المكرس للباحثين، ومع أن الشخص العادي يعلم أن هناك هيكلًا مكرسًا إلا أنه كان قد تعرف على التفاصيل بشكل ليس بأفضل من تعرف الشخص المسيحي العادي على القوانين الكنسية المختصة بالقسيسين.

ولكن الآلهة التي كان الشخص الآشوري العادي مهتمًا بها كانت قليلة العدد.

وكان أولها: هو الإله القومي آشور الذي لا يمكن لأحد أن ينساه نظراً لعلاقته الوثيقة بما يفعله الملك وكان مكرماً ومقدساً في كل المناسبات الرسمية. ولكن ربما لم يكن الشخص الآشوري العادي عالماً أن آشور امتص عدة مظاهر من الإله السومري انليل (عضو الثالوث الإلهي) ومن مردوخ إله بابل.

وإلى جانب آشور كانت هناك الإلهة عشتار التي لم تكن بعيدة عن الاعتبار نظراً لعلاقتها بالأنشطة الجنسية من جهة ومن جهة أخرى لارتباطها بالحرب.

وقد أظهرت عشتار نفسها في عدة أشكال، مثلاً، عشتار نينوى وعشتار إربيل وعشتار بيت عنجوري على سبيل المثال، وقد ظنَّ بعض الآشوريين أن هؤلاء كانوا آلهة متميِّزين، ولهم الحق في ذلك نظراً لأن أشغال عشتار المختلفة ربما تكون قد تطورت وذلك بسبب إضعاف صفة الآلهة عشتار لبعض الآلهة المحلية المعروفة.

وبعد ذلك كان هنالك بعض الآلهة، المختصة بالظواهر الطبيعية مثل إلهة الشمس شاماش (وكان هذا هو إله العدالة) وإله القمر (سين) وإله الطقس (أداد).

وكل من هذه الآلهة كان مرتبطاً بالحياة اليومية فلا يجوز تجاهلها، وكان إله الحكمة (ايا) يحتل المقام الأول بالنسبة للوعي الديني مع أنه لم يكن مرتبطاً بالحكمة بقدر ارتباطه وأهميته بالنسبة للعمليات السحرية والعبادات المائية.

وكان (نيرجال) إله العالم السفلي والموت يهتم بشكل رهيب بأمر السحر بينما كان نينوترا أحد آلهة الحرب والصيد يحتل مركزاً مرموقاً في حياة الآشوريين.

وفي تلك الفترات الزمنية التي كانت النصوص الاجتماعية تهتم بالعلاقات البابلية أصبح الإلهان البابليان مردوخ ونابو يمتلكان أهمية خاصة في آشور. لكن عدا عن هؤلاء، لا نحيل لأي واحد من ألوف الآلهة في المجتمع الإلهي الرسمي له ذكر في بعض الحالات في النصوص الآشورية. هناك شواهد قليلة تدل على أن أفراداً قلائل من المجتمع الإلهي قد دخل في الضمير الشعبي.

ومع ذلك فإن الفكرة الأخيرة هي بحاجة إلى إبداء بعض التحفظات: إذ إن عدداً قليلاً من أسماء الآلهة الأخرى موجودة كعناصر متغلغلة في الأسماء الشخصية.

وربما كان هذا دلالة على وجود ظاهرة عبادة هذه الآلهة وانتشارها الواسع مع أنه ليس لدينا أي شواهد أخرى.

أما مجتمع الآلهة الأخرى فلم يهتم بحاجات العبادة بقدر اهتمامها بالتعبير عن حالة الإجماع التي شعر بها المثقفون من ذوي العقول النيرة في بابل القديمة في آشور وذلك لتنظيم جميع مظاهر الحياة.

وطبقاً لهذه الفرضية فقد عمد اللاهوتيون إلى ترتيب جميع الآلهة من مختلف الأحوال وضمها إلى مجتمع ديني منظم، يمتلك علاقات متداخلة محددة مع حق الأفضلية.

ولكن كانت التقاليد المحلية ذات قوة عظيمة بحيث كان الشخص الآشوري العادي أصبح في وضع حرج أجبره على استحسان تلك التفسيرات الموجودة في المجتمع الديني الرسمي كما هو الحال بالنسبة للرجل المسيحي العادي الذي يتوجب عليه أن يحدد العلاقة ما بين الإله الأب والإله الابن والروح القدس.

وكانت حالة الأفضلية فيما بين الآلهة الآشورية وقضية علاقاتها المتبادلة، لقد بقيت هذه القضايا وبشكل واضح مشكلة من المشكلات حتى زمن نهاية الإمبراطورية تقريباً.

وهكذا نجد الملك سنحاريب مجبراً على أن يؤسس (بمشيئة الآلهة) الترتيب المناسب لأفضلية عدد من الآلهة التي تشترك في الاحتفالات الدينية، وهناك نص آخر يعكس نواحي الشك فيما إذا كانت الآلهة (شيروا) هذه زوجة الإله آشور الذي كانت زوجته فعلاً تعرف باسم (نبيذيل) وهذا هو أصلاً اسم زوجة الإله السومري (أنليل) أو أخته.

إن الآلهة العظيمة التي ذكرت بصفاتها مهتمة بحياة دولة آشور (وبابل) ككل من الممكن في الوقت نفسه اعتبار أن لديها صلات خاصة ببعض المدن.

وهكذا فإن الإله نيرجال الذي كان بصفته إله العالم السفلي كان مسيطراً على أهوال الموت، فقد كان بالاشتراك مع زوجته (لاس) يوصف في بابل بأنه كان يعيش في مدينة (كومتها).

وأما في آشور فهو يوصف بأنه كان يعيش في تاريبو (وهي ممر على النهر شمال نينوى).

وأما آشور الإله القومي الآشوري فقد كان طبعاً مرتبطاً بالمدينة التي تحمل اسمه.

وكما لاحظنا سابقاً فقد كانت عشتار في أشكالها المختلفة ذات ارتباطات مختلفة مع نينوى وإربيل.

وأما (سن) إله القمر فقد كان يمتلك بيتاً في (آور) وأما في آشور العظمى فقد كان مرتبطاً بمعبد المتواجد في حرّان.

وفي الأصل فقد اعتبر الإله ككائنات ذات أشكال إنسانية ولكن خلف هذه المعتقدات كانت هناك معتقدات أقدم عهداً ما تزال تؤلف بعض آثار الصور والنصوص.

وهكذا فقد كان آشور ناصر بعل الثاني يحمل منجلاً بشكل رأس طير كان يمثل الإله نينوترا، وهو إله الحرب والعييد عند الآشوريين، وهناك خرافة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وهي من سومر ولكنها كانت لا تزال شعبيةً في آشور في الألف الأول ق.م وقد أخبرت هذه كيف أن هذا الإله قد تغلب على كائن إلهي بشكل طائر يدعى (أنذو) وسلبه قوته، وكانت هذه إحدى الطرق (طبقاً لبعض الإجراءات الشائعة ضمن القصص الخرافية) التي تعكس كون الشكل القديم لنينوترا كان ذلك الكائن الإلهي بشكل طائر.

وبالمقابل فإننا نرى الإله آشور يوصف بكونه جالساً على أسد، هذه الفكرة من الممكن أن توحى أنه وفي مرحلة أقدم عهداً كان من المظنون أن القوى الخارقة التي كان يحملها هذا الإله كانت تتشكل بشكل أسد.

حتى مع وجود مجمّع الآلهة ذي الاستعمال العادي، هناك ميل للانتقاص من شأنه ولقد تأثر هذا الميل بالتطورات السياسية فضلاً عن التخمينات الدينية.

ففي دولة آشور عد المواطن نفسه موجوداً في مجتمع كانت فيه جميع السلطات التي كان يخضع لها المواطن، إنما تمثل في نهاية المطاف مصدراً واحداً من مصادر السلطة وهو الملك.

وقياساً على ذلك من المعقول القول: إنه وبالنسبة للعالم الإلهي فإن جميع الآلهة في نهاية المطاف ما هي إلا تمثيل لإله واحد محيط بجميع القوى الإلهية، وإننا نجد هذا الأمر موجوداً في عدد من النصوص -مثلاً- النص التالي الموجه للإله نينوترا:

عيناك أيها الرب هما تمثلان الإله أينليل ونينيل

وشفتاك تمثلان آنو وأنتو

وأما جبينك فهو يمثل الإله شالا وهي زوجته المحبوبة التي تفرح القلب

وأما عنقك فيشبه ويمثل الإله مردوخ

وأما رأسك فيمثل الإله حدد

الذي خلق السماء والأرض

وكقضية جانبية من الممكن أن نشير أن هذا الشعر يمثل مظهراً آخر لذلك الرّزّم والتدفق الذي حدث داخل المجتمع الإلهي وعلى الرغم من محاولة اللاهوتيين تبني وجهة نظر واحدة متماسكة.

هنا يقول الإله حدد:

((هو الذي خلق السماء والأرض)).

ولكن لقد مُنح عدد من الآلهة الأخرى نفس اللقب، وكذلك فقد كرمت كثير من الآلهة بالقدرة على الخلق بالنسبة لعلم الأساطير.

ويذكر نص آخر:

((إن كوكب المشتري هو نجمة الإله (سن) (وهو الاسم الذي يطلق عادة على

القمر) وأن الإله (سن) هو آشور)).

ثم يستمر هذا النص في القول: إن نجوماً أخرى محددة مرتبطة بآلهة أخرى هي نجوم الإله آشور.

فهل إن الاعتراف بالآلهة الأخرى كمظهر من مظاهر وجود إله واحد، إنما

تمثل الاعتراف بالوحدانية؟

إن الجواب على هذا السؤال يعتمد اعتماداً عظيماً على كيفية فهمنا

للوحدانية.

فالمسيحيون يعدون أنفسهم وحدانيين، ولكن هناك بعض المسلمين الذين

ينكرون اعتراف المسيحيين بالوحدانية نظراً لأن المسيحيين يقبلون فكرة الأقانيم

الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

إن وجود ثلاثة أشخاص إنما يعني ثلاثة آلهة.

لكن إذا كانت الوجدانية تعني الاعتقاد بأن جميع الكيانات الإلهية هي في آخر الأمر كيان واحد، عندها يمكن اعتبار الآشوريين موحدين، وعلى العكس فإن الاعتماد على وجهة النظر القائلة:

((إنه من الممكن للإله أن يظهر بعدة أشكال مختلفة)) وإن وجهة النظر هذه منافية لمبدأ التوحيد، عندها يتضح لنا أن الآشوريين لم يكونوا موحدين.

كان الآلهة العظماء موجودين في كل مكان، لدينا نصوص مختلفة حول الآلهة مفادها ما يلي:

يضع الإله السموات فوق رأسه كأنها عمامة، ويدوس على العالم السفلي كما يدوس على الحذاء.

ولكن وكما هو الحال لدى اليهود والمسيحيين والإسلام فإن المكان الذي يتقابل الناس فيه مع الإله هو الكنيس أو الكنيسة أو المسجد، وهكذا وبالنسبة لآشور القديمة كان المعبد هو المكان الذي يمكن فيه الالتقاء بالآلهة.

لقد كانت المعابد القديمة قدم المدن نفسها، ففي أوائل المستوطنات كان المستوطنون يؤمنون لأنفسهم مساكن مناسبة للآلهة مع أنها كانت صغيرة بالنسبة للإله الذي سوف يسكن فيها، وكان هذا الإله يحضر ومعه عائلته وما يلزمه تماماً كما يفعل الحاكم من بني البشر، وكانت تمثله آلهة أخرى أقل مرتبة منه ولها أماكن عبادة ومساكن ملاصقة لأبنية المعبد الرئيسية، وحالما توسعت المستوطنة لتصبح مدينة كبيرة فقد توسع المعبد معها، بحيث أصبح ابتداءً من فترات قديمة وفي بعض الحالات مؤلفاً من أبنية ذات حجوم لا بأس بها وذات ثروات وأبهاء.

وحيثما اتسعت علاقات المدينة مع المجتمعات الأخرى انعكس هذا في علاقات إله المدينة وربما كان هناك بعض المعابد الصغيرة التي كانت تضاف لاستعمال الآلهة القادمة بناءً على العلاقات الجديدة.

ربما يتوقع المرء أن تكون عبادة الآلهة مرتبطة بالمعابد، والحقيقة أنها كانت كذلك مع أنها لم تكن محصورة بالمعابد حين كان القصر الملكي مهتماً بشؤون العبادة، وهذا ولدنا عدد كبير من النصوص الواردة من المعابد البابلية، أكثر منها من المعابد الآشورية، وهكذا فنحن بالتالي نعرف معلومات أكثر عنها. ونظراً لذلك علينا أن نتجنب ذلك الانحراف بملء الفجوات حول المعابد الآشورية من المعلومات التي نعرفها حول المعابد البابلية، لوجود فروق كبيرة بالتأكيد.

ففي بابل: كانت المعابد تمتلك بعض الضيق على مقياس واسع، مثلاً في إحدى الفترات كان معبد إيانا في المدينة الجنوبية المدعوة (إيدسن) قادراً على إدارة شؤون اقتصادية موازية وأحياناً مستقلة عن الشؤون الاقتصادية الخاصة بالدولة.

ولم يكن ينطبق هذا على آشور في الألف الأول قبل الميلاد حيث كانت الإدارة الآشورية تمسك بزمام المبادرة في جميع الشؤون الاقتصادية والحياة الإدارية في البلاد، في حين أن المعابد هناك لم تستطع امتلاك الأراضي المحيطة بهذه المعابد، وحتى في الأحوال التي كانت فيها أحد المعابد الآشورية يمتلك أرضاً مجاورة للمعبد وحتى في الحالات التي لم يكن المعبد الآشوري يمتلك أرضاً، كان مدى أملاكها غير كافٍ لتأمين الوظائف الاقتصادية المطلوبة، ولا يعني هذا أن المعبد لم يكن غنياً، فالمعبد الرئيسي ذو الوظائف التعبدية والدينية التي كانت مقررة من الملك يمكنه أن يجد الوسائل من وقتٍ لآخر لتقديم عطايا وهدايا لازمة لإصلاح بناء بعض المعابد.

وكانت التقدّمات من المتعبدين أيضاً ذات شأن، فقد ذكر أن أحد القائمين على خدمة أحد المعابد قد أخبر الملك أنه قد حصل على (١٢) مينا من الذهب حصل عليها من التقدّمات التي كان يقدمها المتعبدون وأنه قد خصص هذا الذهب

لعمل زخرفات لزوجة الإله، وتبلغ قيمة هذا الذهب (٤٠،٠٠٠) جينيه إسترليني حسب سعر الذهب عام ١٩٨٠ ب، م وهذا بالتأكيد كان من أعظم المعابد في بابل. وهنا نعود لذكر مظاهر العبادة في المعابد الآشورية، إذ نظراً لأن المعابد كانت أولاً: هي المأوى الدنيوي للآلهة لذلك فعلينا أن نتوقع شهادة تدل على الوجود الإلهي فيها وكانت العادة أن يتمثل الإله بوجود التماثيل التي كانت مصنوعة من الخشب والحجر المرصع بالذهب أو تماثيل محفورة من النحاس أو المعادن الثمينة، وكان كل تمثال يقف أو ينتصب على قاعدة أو منصة ولكن وكما ذكرنا سابقاً لم تكن تماثيل الآلهة ذات أشكال بشرية.

وليس لدينا أي شاهد معين عن وجود أي إله آشوري بشكل حيواني ولكن من المؤكد أن يمثل الإله برمز من الرموز الإلهية، مثلاً أحد الخناجر بدلاً من تمثال.

لم تكن التماثيل في المعابد الآشورية تمثل الآلهة حصراً إذ نحن نسمع عن تماثيل كبيرين نصباً في معبد القمر في حرّان، واحد منهما عند يمين تمثال الإله والآخر عن يساره، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة لأمرأة العائلة الملكية من الأمام، ولم يكن هذا يدل على ألوهية الملك بل كان الغرض من هذا أن يحصل الملك على بعض الفوائد السحرية لمصاحبه الدائمة لهذه التماثيل مع إله القمر.

ولقد فسّر الكاهن الذي رتب هذه المجموعات بما يلي:

((نظراً لأن الإله القمر المتوج يرتفع ويغيب شهراً بعد شهر فإنه سوف يرسل إلى الملك سيدي ببشائر مشجعة لعمر طويل واستقرار للحكم وعظمة للسلطة)).

إن الحاجات الرئيسية لبني البشر هي المأوى والطعام والملابس ولذلك فقد نشأت فرضية معقولة من وجهة نظر الإنسان في منطقة ما بين النهرين:

إن الإله إذا كان سوف يتشكل بشكل بشري، ينبغي أن يساهم في الحاجة لمثل هذه الأشياء والحاجات.

كانت أول حاجة للإله هي وجود معبد كبيت له، وكانت الأمثلة الأولى للمعابد في بلاد آشور في الألف الثالث ق.م ذات أبعاد متواضعة، ولكنها أصبحت فاخرة فيما بعد، بحيث كانت مضارعة للقصور الملكية.

إلا أن المعبد كان يختلف من ناحية واحدة عن القصر فقد كان يحتوي على برج ذي درجات (وكان هذا البرج مربعاً في آشور) (الزاقورات) وهو يحتوي على سبع درجات، وهناك صورة موجودة على ختم أسطواني يقدم لنا فكرة عن شكله، وهناك عدة زاقورات في آشور تلك الموجودة في نمرود وهي عبارة عن تلة مرفوعة من صنع الإنسان مع أنها لا تُظهر بوضوح شكلها المدرج.

أما بالنسبة للزاقورات المعروفة في آشور فكانت حجوماً الأصلية تتدرج من ثمانين قدماً مكعباً حتى ما يزيد عن (٢٠٠) قدماً مكعباً (أي: من ٢٤ متراً مكعباً إلى ٦٢ متراً مكعباً) وكان في ورسبال بقايا زاقورة تحتوي على أربع درجات مع وجود درج منحدر عرضه ستة أقدام مصنوع من الآجر المشوي وهو محمي من الخارج بمتراس دائري.

وأما الأوجه العمودية للدرجات الأربع فقد كانت مطلية بالجص ومدهونة باللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق بالتوالي، وكانت هذه تدل على رموز دينية لم نفهمها ومن الممكن أن يكون هناك ثلاث درجات ولكن ليس هناك من دليل على ذلك.

لقد جرت نقاشات عديدة حول القصد من بناء هذه الزخارف، فمن المؤكد أنها لم تكن مراصد فلكية (كما يقترح البعض) ولم تكن تخدم كقبور مثل الأهرامات ربما كان بناء الزاقورات مما له علاقة بالفكرة الشائعة في منطقة الشرق الأدنى القديم وهي:

إن الآلهة كانت تعيش في الجبال بحيث كانت الزاقورة بديلاً عن الجبل في سهول منطقة ما بين النهرين.

ولكن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان الآشوريون أو البابليون من الألف الأول ق.م يملكون معرفة أكثر منّا حول الأفكار التي تكمن وراء هذه الظاهرة المعمارية في الألف الثالث.

لم يكن من الضروري تأمين معبد للإله بل تأمين الكساء اللازم والطعام اللازم وكانت الملابس الطقوسية للتماثيل العائدة للآلهة جزءاً هاماً من مظاهر العبادة في جميع الأزمنة في منطقة ما بين النهرين القديمة وكان هذا ينطبق أيضاً على آشور كما على بابل.

وفي الفنون الآشورية كان هناك تمثيلات وصور لبعض المواكب التي تظهر فيها ملابس الآلهة ولكن ليس هناك من نصوص تظهر كيف ومتى كانت تلبس هذه الملابس.

ولكن لدينا قوائم فعلية للأردية الإلهية والمجوهرات في بابل وهناك يبدو أن الملابس الاحتفالية التي تخص الآلهة كانت تستعمل في مواكب خاصة أو أعياد وليس في كل يوم، ونحن نعلم أن الآلهة كانت تقدم لها الأطعمة في المعابد الآشورية يومياً لأننا لاحظنا أن تقديم الطعام في معبد نينوى والوجبات الصباحية والمسائية للآلهة في نينوى قد ذكرت.

وللمرة الثانية نجد أن المعلومات متوفرة بالنسبة إلى بابل التي نجد فيها نصوصاً تقدم التفاصيل التي لا تخص القضايا الاحتفالية لخدمة الآلهة فحسب بل حتى قوائم مواد الطعام، فقد كانت الآلهة تزود بوجبتين غذائيتين رئيسيتين ووجبتين خفيفتين يومياً وكان الطعام يشتمل على البيرة والحليب وخبز الشعير وخبز القمح ثنائي البذرة ولحم الغنم ولحم البقر ولحم البط والدواجن الأخرى وبيض النعام وبعض البط والتمر والتين.

ومن العجيب أنه على الرغم من الكميات الكبيرة من الأطعمة التي كانت تقدم للآلهة إلا أنه لم يرد ذكر قضية التغوط، إذ يبدو أن هذا كان من وظائف البشر التي كان يستغني عنها الآلهة، نظراً لأن علم الأساطير يظل صامتاً تجاه

هذه القضايا ، ومع أن الآلهة كانت تشترك في معظم الأنشطة البشرية الأخرى كالأكل والشرب وأعمال الحب والجنس وسوء المزاج والعبوس والبكاء والنوم. وفضلاً عن الواجبات التي تحتم العناية بصور الآلهة إلا أنه كان هناك عدد كبير من المراسم بعضها يجري شهرياً وبعضها في المناسبات في أيام خاصة من السنة ، وفي أيام تنصيب الملك الجديد وفي أي وقت كان من الواجب حضور المعبد لأداء بعض الفروض والطقوس ، وذلك لتجنب شرور سوء الطالع وكانت بعض هذه الاحتفالات تشمل صورة الإله وتمثاله الذي يُلبس بعناية ويخرج من المعبد للاشتراك في الاحتفالات ثم الرجوع. في بعض الحالات كنا نعلم عن الاحتفالات من تلميحات عابرة في النصوص مع ندرة التفاصيل أو عدم وجودها ، ومن الممكن مثلاً أن نجد سطرًا واحداً في نص يشير إلى الوقت الذي يضحى به الملك بأحد الخراف أمام النجوم والذي نستنتج منه أن شيئاً ما ذا أهمية وطنية تشمل الملك سوف يحدث ليلاً ربما في باحة المعبد أو في المعبد أو على سطح القصر ولكن لا نعلم فحوى الحادث. وكانت بعض الطقوس معقدة جداً وهي تشمل وجود عدد كبير من الآلهة ، وهكذا نجد أحد الطقوس يذكر خمسة عشر إلهاً أنهم واقفون إلى يسار الإله آشور وخمسة عشر إلى يمينه من الواضح أن هذا كان إحدى الاحتفالات الرائعة ، ولا نعلم ما كانت تفعله هذه الآلهة في هذا الاحتفال ولكن يبدو أن هذا كان اجتماعاً سرياً وخلوة للآلهة ، لأنهم كانوا مزودين بالطعام المؤلف من الخضروات في هذه المناسبة وكذلك بذور الكتان والمكسرات والقنب والرمان والتين والخبز والنبيد والبيرة.

كانت معظم الطقوس في المعبد مؤلفة من صيغ معدلة لعناصر مختلفة كميّرات الآلهة والتضحية بالحيوانات وتقديم الطعام والشراب وتلاوة التعاويذ والصلوات وإنشاد الأناشيد واحتفالات الاغتسال ، وموسيقى الطبول (وعلى مستوى أقل) تمثيل درامي لحوادث خرافية وكانت عناصر هذه الأخيرة تحتوي على قتال طقوسي وسباق أو الذهاب إلى الفراش لممارسة الجنس ، وهذا الطقس يدعو

الباحثون الحديثون، وهم خجلون، بالزواج المقدس، وكانت الطقوس مصحوبة بالموسيقى وبخاصة قرع الطبول الذي كان شائعاً جداً بالنسبة لمختلف الآلهة.

وتُعدُّ إحدى القوائم ثلاثة عشر من هذه الاحتفالات الدينية الإلهية في آشور التي كانت تحدث ما بين أشهر أيلول ونيسان، وتذكر إحدى النصوص القديمة أن الغرض من قرع الطبول كان دعوة الآلهة.

هناك واحد من الأعياد التي نسمع عنها الشيء الكثير هو ما يدعى (أكيو) مع أن هذا يترجم باسم عيد رأس السنة، ولكننا لا نعلم ما معنى هذا الاسم أصلاً، ونحن نستعمل الترجمة نظراً لأنه وفي بابل هذا هو ما حدث، فقد كان هذا العيد يتم في الشهر الأول من السنة وهو نيسان.

وفي بابل كان هذا العيد يبدأ بتلاوة جميع أحداث أسطورة الخلق، وكذلك تمثيل الصراع الطقوسي ما بين إله المدينة والوحش البدائي المدعو تيامات (وهو عبارة عن تين بشكل امرأة).

وأما الزواج المقدس فقد كانت هذه الاحتفالات تتم لتأمين راحة المدينة في السنة القادمة وتتويج الملك الجديد، ولكن لا يجوز شرعاً الافتراض أن علينا أن نرى في الاحتفالات في آشور نسخة طبق الأصل عن الاحتفالات في بابل.

ففي بابل ليس من الضروري أن يحتفل (بالأكيو) في بداية العام وفي شهر نيسان، بل نجد ذكر مثل هذه الاحتفالات مثلاً في شهر آب وأيلول في مكان قرب إيربيل وفي آزار في مكان لم يحدّد، ولقد حدثت الاحتفالات في شهر آزار خلال الألف الثاني ق.م.

ومع ذلك فإننا نجد أن هناك احتفال (الأكيو) في شهر نيسان في مدينة آشور مع وجود دلالات قوية أن كثيراً مما حدث كان موازياً للاحتفال الذي حدث في بابل، وهذا لا يمثل العادات الآشورية القديمة فحسب بل يمثل نفوذ بابل الأخير.

وفي اليوم الثاني غادر الإله آشور مَعْبده بعد أن تناول فطوراً من اللحم، وركب عربة تجرها الخيول البيضاء على رأس موكب من الآلهة متجهاً إلى بناية تدعى

بيت أكيو، وكان هذا معبداً قد بناه سنحاريب خارج المدينة، ولقد اعتبر سنحاريب الأرض الواسعة هي خير مكان لبناء بيت أكيو، نظراً لأنه من الواضح أنه عند بنائه هذا المعبد كان يشير بوضوح أن عادة إقامة العيد المختص بوليمة آشور ملك الآلهة قد تطور، وأصبح داخل المدينة بدلاً من إقامته في الهواء الطلق.

ولكن هذا يخدم للبرهنة أنه رغم آراء سنحاريب القوية فقد كان هناك تقليد آشوري بديل في هذا المجال وإن تأكيد سنحاريب على ما هو حق وصحيح لربما كان متأثراً بتجربة البابليين.

ولم يخبرنا أحد ماذا فعل آشور عندما وصل إلى بيت أكيو، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج أنه عدا عن ترؤسه للوليمة التي ذكرها سنحاريب فقد استأنف ذلك الصراع الكوني ضد الوحش تيامات، وأن السبب الذي يجعلنا نفكر بهذا الشكل هو أن سنحاريب يصف بيت أكيو بأنها مزخرفة بتمثال آشور الذي كان ذاهباً لخوض معركة ضد (تيامات) حالما يرفع قوسه وهو راكب في عربته وعلى خصره سلاح الطوفان.

ولكن هنا أيضاً يعجب الإنسان إلى أي حد قد وصلت هذه التفاصيل إلى آشور القديمة وإلى أي حد قد اقتبست آشور هذه التفاصيل من بابل.

لقد كان الدين الآشوري هو دين الدولة وكانت الدولة تعتمد على الملك لذلك لا عجب أن تتركز طقوس المعبد على الملك أيضاً، وقد ظل هذا الوضع صحيحاً حتى بالنسبة إلى المعابد المتوضعة في مدن بعيدة عن العاصمة حيث لا يستطيع الملك أن يحضر بنفسه جميع الاحتفالات، وفي هذه الحالة كان رداء الملك الطقوسي يرسل إلى المعبد ليقوم بالدور الذي كان الملك سوف يقوم به.

وكان من العادة أن يحضر آخرون من أفراد العائلة المالكة وفيهم نساء، الطقوس في المعبد وهكذا نجد أن أخت الملك أو ابنته قد دعيت للاحتفال وذلك لكي تستدعي بالاسم زوجة الإله آشور الأعلى حالما يقدم لها شيء من اللحم المطبوخ.

كان المعبد الرئيسي في مدينة رئيسية ربما ينقصها وجود الممتلكات والضيع التي كانت تتمتع بها أي مدينة مماثلة في بابل، وكان هذا المعبد لا يزال مؤسسة معقدة تتطلب وجود موظفين ورجال دين أيضاً.

وبالنسبة للمعبد في العاصمة القديمة آشور فقد تركزت السلطة بموظف لم يكن ذا شخصية دينية وهو يدعى: الأباراكو (أي: مدير الأعمال) في بيت الإله آشور.

وفي بعض المعابد الآشورية كان المدير الرئيسي يعرف باسم الرجل المسؤول عن البيت بينما كان يدعى في معابد أخرى شانغو وهو الموظف الكهنوتي الأول، وهكذا فقد ترجم لقبه بكلمة كاهن ومن الممكن أن يحمل هذا الرجل لقبين وهما: (الرجل المسؤول عن البيت) ولقب: شانغو وكان استعمال أحد هذين اللقبين يدل على أي من هاتين الوظائف كانت أعلى مقاماً في ذلك الوقت.

وعادة كان هناك نائب للشانغو نظراً لأن شانغو معبد عظيم كان رجلاً ذا أهمية كبرى وغالباً ما كان ذا اتصال مباشر مع الملك شخصياً أو في المناسبات الاحتفالية أو عن طريق المراسلة حول الحوادث التي تجري في المدينة أو الدولة.

وكان من الممكن أن يكون هذا ذا ثروة هائلة وأن يمتلك الضياع الكبيرة بالإضافة إلى الأجور التي كان يتقاضاها كحصّة من مدخول المعبد.

ولقد كان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين مع أن اختيار الملك في مثل هذه الحالات كانت محاطة بعاملين:

الأول: وهو قبول مبدأ التوارث، وهكذا إن تقريراً قد أرسل إلى الملك فحواه أن الرجل المسؤول عن البيت في أحد المعابد قد توفى، وكان يقترح على الملك أن يعين بدلاً عن المتوفى إما ولده، أو ابن أخيه وابن عمه الذي سبق أن أقيّل بعد أن كان نائباً للشانغو، إذ إن التعيينات في ذلك المعبد كانت منحصرة في دائرة ضيقة.

أما العامل الآخر من القيود على حرية الملك في الاختيار فهي: أن اختيار الملك ينبغي أن ينال موافقة الآلهة واحتفال ديني وهكذا فقد أصبح الكهنة المحترفون مسيطرين على الإجراءات اللازمة للحصول على القرار والتأييد الإلهي، ومن الواضح أن هذا التأييد كان يوفر لهم الفرصة للاعتراض والنقض بالنسبة إلى أي تعيينات لا يوافقون عليها.

كان للشانغو مساعد وهو نائبه عند الضرورة وهو الذي يعتني بالشؤون المالية للمعبد فقد كان مسؤولاً عن استلام التقدّمات وإدارة شؤون المعبد المالية. وكان مسؤولاً عن أملاك المعبد بصورة عامة (ما عدا حالة المعبد الرئيسي في آشور حيث كان هناك مدير للأعمال (أباراكو) (معيناً لهذا الغرض)، وهذا وإن حماية أملاك المعبد لا تخلو من مشاكل إذ إن الاختلاسات التي يقوم بها بعض أفراد موظفي المعبد لم تكن نادرة، وفي بعض المناسبات نجد بعض الموظفين الإداريين يقدمون شكاوى إلى الملك أن أحد الموظفين المحليين قد نهب أموال المعبد.

وكان الشانغو ونائبه هما المسؤولين عن طقوس المعبد، وطالما لعبا دوراً رائداً في هذا المعبد مع أن شخصيات وفيه أخرى مشكوك فيها. هذا وكان ملك آشور نفسه الذي كان الرئيس الأسمى لطقوس الدولة يحمل لقب شانغو بين ألقابه الكثيرة.

كان هناك عدة طبقات كهنوتية عدا عن الشانغو مرتبطة بالمعبد، وآخرون كانوا غير مرتبطين ويتوقف كون مثل هؤلاء الموظفين أصحاب صفة كهنة أو غير كهنة على وجهة النظر الموضوعية بالنسبة لمعنى كلمة كاهن.

وكلمة كاهن تستعمل أحياناً متصلة باصطلاح وصفي (لمهامه) ولكن على الرغم من هذا فإن وجهة النظر المعتمدة هنا هي أن هؤلاء الموظفين الدينيين (مع استثناءات ممكنة) لم يكونوا كهنة كما كان الحال بالنسبة للشانغو الذي

كان على اتصال وثيق بالإله لكونه مسؤولاً عن تسيير الطقوس في بيته وهو المعبد.

والحقيقة فإن التمييز بين الكاهن وغير الكاهن لم يكن من اختصاص الثقافة الآشورية، إذ كان هناك تمييز واضح بين الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هيئة الموظفين في المعبد والذين لم يكونوا كذلك وكان الاسم الذي يطلق على العضو في هيئة موظفي المعبد (أريب بيه) ومعناه الحرية: (الشخص الذي يدخل البيت).

إن مثل هؤلاء الموظفين كانوا مسؤولين بانتظام عن تسيير شؤون المعبد، بينما لم يكن الأشخاص الآخرون مسؤولين عن هذا الأمر.

وهذا الاصطلاح ربما شمل الصانع فضلاً عن الموظفين الدينيين وأحياناً بعض الموظفين الملكيين، وكان لمثل هؤلاء حق المساهمة وأخذ حصة من التقديرات التي كان يستلمها المعبد.

إن الطبقة الثانية من طبقات الموظفين الدينيين الذين عُدا موظفين رسميين في طاقم المعبد كانوا يعرفون باسم: الكالو، وترجمتها: (كاهن الابتهاالات) مع أن هذا الكاهن كان يقوم بأنشطة أخرى عدا عن الأنشطة الكهنوتية، وما عدا الدور الرئيسي والاحتفالات الكبرى التي كان يقوم بها الشانغو أو نائبه، وإن أكثرية الطقوس في المعبد كان يقوم بها الكهنة الذين يُسمون بالكالو وبمساعدهم.

ونحن نجد هؤلاء يقومون بتأدية أعمال كمثل نصب الطبول في فناء المعبد عند إقامة طقوس خاصة بمناسبة خسوف القمر، أو يؤدون طقوساً دينية ليلية ذات علاقة بالمعجزات وعلم النجوم، وبمساعدة الأشيبيو (سوف يذكر فيما بعد) كان الكالو يقيم طقوس تطهير المعبد التي تشمل عمليات التنظيف الطقوسية ونشر البخور، أو سكب الخمر على جسد الأضحية وهو ما يدعى بالإراقة.

ولقد وجدنا أن سنحاريب قد أرسل أحد هؤلاء الكالو ومعه أحد الأشيبيو لإنجاز الطقوس الضرورية عند شق إحدى الأقبية.

ولكن الوظيفة الرئيسية للكالو كانت الإنشاد وهو ترجمة اسمه التقليدي، فلقد كان الإله يسكن في بيته الأرضي وهو المعبد، وكان من الضروري الحفاظ عليه في مزاج جيد، وإبقاء أساليب التواصل مفتوحة وذلك للمساعدة على إبقاء شفقة ورحمة الإله للبشر حين وقت اللزوم.

وكان هذا هو عمل ووظيفة الكالو الذي كان يقوم بتراتيله وإنشاداته الطقوسية الموجهة إلى الإله والتي كانت تتخذ شكل الصلوات أو الابتهالات بصورة نموذجية، وكذلك الصلوات والأغاني الدينية التي ندعوها بالمزامير وترافقه بعض الآلات الموسيقية كالطبل أو القيثارة.

أما الموسيقيون من الطبقة الدنيا فكانوا يساعدون في أداء الأناشيد الفعلية، واللعب تحت إرشاداته، ومن الممكن أن يكون الكالو رجلاً ذا أهمية وثروة، إذ نظراً لأنه كان يقرأ وينشد طقوساً صعبة فإنه كان ينتمي إلى طبقة المتعلمين وهم أقلية.

ونجد بعض هؤلاء الكالو يعملون كتبةً وفي بابل (ولسنا متأكدين أن هذا ينطبق على آشور) كان الكالو المثقف المتعلم يجمع ما بين عدة وظائف إذ يمكن أن يكون (كالو) و(شانغو) في معبد آخر، ولكن ليس من الضروري أن يكون الكالو من طبقة اجتماعية راقية.

ونحن نجد قضية كالو قد أعتق من العبودية إكراماً للإله بعل، وليس من الواضح إن كان هذا الكالو عبداً في الأصل أو سيداً، ولكن من الواضح أنه كان تحت سحابة اجتماعية تجعله مشبوهاً.

لقد لعبت الموسيقى دوراً مهماً في الطقوس في كل من الهيكل والدولة، وبالإضافة إلى ذلك في التراتيل التي كان يقدمها الكالو، وكان هناك طبقة من الناس قد كرسو أنفسهم للموسيقى، وكانوا يقدمون موسيقى الصوت والعزف على الآلات الموسيقية، وكان الشخص من هذا النوع يدعى (نارو) والمؤنث نارتو، وكان الموسيقيون يذكرون إلى جانب الكالو في الطقوس في المعابد ولكن مراتبهم الاجتماعية كانت أدنى من هؤلاء.

وكانت مسؤولية ترتيب التراتيل تقع على الكالو، وكانت واجبات النارو أن ينشدوا الأناشيد بشكل جيد وأن يعزفوا على الآلات الموسيقية، وقد كان الموسيقيون سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً يذكرون بأعداد كبيرة بما يختص بشؤون القصور، إذ إن الملوك الآشوريين كانوا حريصين على جمعهم.

ولدى الاستيلاء على بلاد أخرى كان الآشوريون يجلبون أحياناً مجموعات من مثل هؤلاء الناس باعتبارهم جزءاً من الغنائم، وكان الموسيقيون يرافقون الملك الآشوري أثناء غزواته.

كان الدين الآشوري معقداً جداً فهو يحتوي على مزيج مختلط من المواقف من أصول مختلفة كانت تعمل على مستويات مختلفة.

إذ لم تكن المعابد ولا العبادات المؤسسة على الإيمان بالآلهة تتخذ أشكال البشر، هي كل الديانة الآشورية.

وفي هذا المجال كان الاعتقاد السائد هو وجود آلهة ذات مواقف إنسانية بشرية مع قوى خارقة لقوة البشر، وكان لهذه الآلهة اهتمام بالبشر الذين يستطيعون الاقتراب من هذه الآلهة.

وإن هذه الكائنات الإلهية إذا تم الوصول إليها بشكل لائق ومناسب من الممكن إقناعها بأن تستعمل قواها لفائدة الأشخاص الذين يعبدونها.

هذا وإن القرءاء إذا كانوا قد نشأوا ضمن تربية وتقاليد مسيحية أو يهودية ربما فكر هؤلاء أن هذه الأقوال بديهيّة، والحقيقة أنه لم تكن جميع المعتقدات الدينية الآشورية معتقدات متديّنة فقد كان هناك معتقدات بالنسبة لما وراء الطبيعة ذات أصول مختلفة وممارسات مختلفة وتعود هذه المعتقدات إلى أزمنة ما قبل التاريخ قبل أن يكون هناك أبداً أي دولة آشورية، أو أي ملك آشوري، وفي بعض الحالات حتى قبل أن تتشكل فكرة الآلهة ذوي الشكل البشري وهذه اشتملت هذه الأوضاع ما ندعوه في الاصطلاحات الحديثة بالسحر أكثر منه في الدين.

وإن كثيراً مما حدث في هذا السياق كان منحصراً بالنضال ضد التأثيرات الشريرة، وهو الذي كان يبدو أحياناً هلامياً، وأحياناً يُشخّص بكونه شكلاً من أشكال الشياطين، ولكن في آشور لم يكن هناك تمييز قاطع ما بين السحر والدين، ونتيجة لذلك وجد بعض رجال الدين الذين كان نشاطهم مُنصباً على مجال السحر وليس مجال الدين كما نفهمه ولهم مركز ضمن الطقوس في المعابد والاحتفالات الدينية.

وكان أشهر وأنشط العاملين من الكهان في هذا المجال هم الخبراء بالتعاونيد السحرية، وهم المعروفون باسم الأشيبيو (أو ماش ميشو) التي تترجم باسم طاردي الأرواح الشريرة، مع أن كلمة الساحر أو طيبب الساحرات ربما تبدو أكثر دقة وأكثر إفصاحاً عن وظيفة هؤلاء في المجتمع الآشوري.

وكان من المعروف أن الأشيبيو كان لديه قوى سحرية هائلة لدرجة أنه وفي النصوص الدينية كانت قد وصفت بعض الآلهة بأنها أشيبيو الآلهة وهذا يعني: إن قوة الأشيبيو كانت عظيمة جداً بحيث إنها تفوقت حتى على القوى الإلهية، مما دعا الآلهة أنفسها لتظهر السرور بامتلاكها، وهكذا يصبح الأشيبيو متمتعاً بهيبة واحترام.

لم يكن الأشيبو بموجب طبيعة وظائفهم عبارة عن موظفين في المعابد مع أنه كان بعض هؤلاء يعينون في ملاك موظفي المعبد لإنجاز وظائفهم المختصة بهم كما يجب، مثلاً: عند إنشاء التعاويذ، أو عند محاولتهم طرد الأرواح الشريرة والشياطين من حضرة الملك.

وكان معظم هؤلاء يعملون خارج المعبد، وكان بعضهم يعمل في خدمة الملك، وكان بعضهم في ملاك موظفي القصر.

ونرى واحداً منهم يعمل كموظف عبادات يعمل في الاحتفالات الدينية عند افتتاح قنال شقه سنحاريب.

وكان آشوريون آخرون يرسلون التقارير المنتظمة إلى الملك حول قضايا تخص أحوال الملك وأحوال عائلته، وأحوال الدولة.

ويذكرون بعض الطقوس اللازمة للتأمين ضد الأخطار، وكان الملك يحترم آراء هؤلاء خصوصاً عندما يصاب الملك بالخوف المريع بحيث يبالغ في الأشياء، وإن لدينا رسالة من أحد الأشيبو إلى الملك يذكر أشياء مشابهة لهذه، ولم نعرف ما سبق هذه الأخبار ولكن هاك ما يقوله الأشيبو:

((لماذا لم تأت مائدة الطعام ولليوم الثاني إلى حضرة الملك [سيدي] الذي هو في الظلام طيلة اليوم، وذلك لأن إله الشمس وهو ملك الآلهة بات في الظلام اليوم بطوله، والليل بطوله، ومدة ثانية لمدة يومين.

ولكن الملك وهو سيد البلاد ما هو إلا صورة للإله الشمس، ولكن ينبغي أن يظل في الظلام مدة نصف يوم فحسب)).

يبدو أن شيئاً ما قد حدث للشمس، وربما كان كسوفاً شمسياً، وكانت متطلبات هذا الكسوف تستوجب البقاء في الظلمة.

ويقترح بعض الباحثين أن هذا الفعل يعني: النواح والندب (مع أنه هنا ليس المعنى العادي) أن يبقى في الظلمة لمدة يومين.

فقد كان الملك يلاحظ ويتقيد بهذا الطلب الشديد الوطأة، ولكن عندما أتى الأشيبيو وهو يقول:

((إنه نظراً لأن الملك نفسه عبارة عن إظهار بشري للإله شمس فإن فترة بقائه في الظلام (أو في حالة من حالات الندب والضجيج) وسوف تتحدد بنصف يوم)).

ولكن لماذا عرض الأشيبيو هذا الاقتراح بعد أن كان من الواضح أن الملك قد قضى في الظلام مدة تزيد على نصف يوم؟

ولكن أقوال الأشيبيو: إن بمقدور الملك أن يتخلص من الذنب بقضائه نصف يوم في الظلام هو قول خادع.

فإذا كانت هناك قاعدة تقضي بقضاء يومين من الكفارة ضد ذنب أو حادث خاص من سوء الطالع، عندها كان من الواجب أن يكون الملك وهو الذي يمثل دولة آشور هو الذي عليه أن يقوم بهذا العمل.

وقد وجد مكان غير مقروء في رسالة أشيبيو، ولكن وحيث أمكن فهمه فإن هذه الرسالة تعطي انطباعاً يبرر السبب الذي جعل الأشيبيو يلتمس عذراً للملك في كسر الصيام.

وأما بقية الرسالة (وفيها بعض المقاطع غير مفهومة) فهي كما يلي:

إن تناول الطعام الطيب وشرب الخمر سوف تعال في الملك من مرضه، وينبغي الأخذ بهذه النصيحة، فإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب سوف يقلق ذهن الملك، ويجلب له المرض، والرجاء أن يصغي الملك لما يقوله خادمه حول هذه القضية:

((والحقيقة أن فرض الصيام والانغلاق بالنسبة للملك قد كان سبباً في زيادة قلقه)). وقد اضطر الأشيبيو أن يجد طريقة يحدد ويقلل فيها الأضرار التي سوف تصيب الذات الملكية دون المساس بسلطة وقوة المطالب الطقوسية السابقة.

لم يكن الملك وحسب ولكن الأعضاء الآخرين من العائلة المالكة، وربما أيضاً الموظفين الكبار في الدولة، كل هؤلاء كان من الممكن أن يكون لديهم (أشيبيو) في ملاك موظفيهم الدائمين.

وهكذا نسمع عن وجود أشيبيو رئيس في بيت ولي العهد وهذا ما يدل أن لدى ولي العهد مجموعة من الأشيبيو تحت تصرفه إذا هددته بعض الشرور، وقد كان كثير من الأشيبيو يحصلون على ما يؤمن معيشتهم من الأجور التي يتقاضونها لمساعدة الناس العاديين للتغلب على الأمراض، أو التغلب على سلسلة من الخصوم من النوع الذي ندعوه الحظ السيئ، وفيما يلي نص موضح للطريقة التي كان الأشيبيو يتصرف بها وهو كما يلي:

لأجل استبدال رجل بشيء يخص أيديش كيغال (آلهة العالم السفلي) عند غياب الشمس ينبغي على الرجل المريض أن يسطح مع أنثى من الماعز الصغيرة في السن والتي لم تلقح لتستلقي بجانبه، وفي نهاية الليل سوف تستيقظ عند الفجر ثم ينبغي أن تبطح وتغير وجهك إلى الجانب الآخر من الفراش، ثم ينبغي على الرجل المريض أن يضع أنثى الماعز بين ساقيه (وفي الحالة) التي تتعلق برجل وامرأة يكون معنى هذا الجماع الجنسي مع امرأة.

وأما حالة أنثى الماعز يمكننا أن نعطي الرجل مع ما بلغت حالة مرضه فائدة الشك، ونقبل الفكرة التي مفادها أنه قد اتخذ موقف الاتصال الجنسي غير الفعّال ولكنه كاف لخداع القوى الشريرة.

وبعدها تجعل الرجل المريض وأنثى الماعز يضطجعان على الأرض وبعدها تلمس عنق الرجل المريض بخنجر مصنوع من خشب الطرفاء (وهي شجرة نحيلة الأغصان) (وكانت الطرفاء تعد ذات خشب سحري) وبعدها تقطع عنق أنثى الماعز بخنجر مصنوع من النحاس.

ثم تغسل أحشاء أنثى الماعز التي ذبحتها بالماء ثم تدهن بالزيت ثم تملأ أحشاؤها بالتوابل، ثم تلبس بعض الملابس وتلبس أقدامها بأحذية ثم تكحل

عينها بالكحل، ثم تصب الزيت الحلو على رأسها، ثم تنزع عمامة الرجل المريض وتضعها على رأس أنثى الماعز، وأن تعاملها باحترام كأنها رجل ميت.

ثم ينهض الرجل المريض ويخرج من الباب وعندها يبدأ الأشيبو بتلاوة بعض التعاويذ ثلاث مرات وهي: (ذلك الرجل هو الذي مسَّته إلهة) ثلاث مرات. وبعدها يطلق الأشيبو صرخات من البكاء على المريض قائلاً: (ذهب يواجه مصيره ثم يبدأ بالنواح والبكاء على المريض).

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة إلى الإله إيديش-كيغال ثلاث مرات. ثم تضع صحنين من البرغل الساخن أمامه. وبعدها تقوم بمدح وتكريم (الميت) ثم تصب الماء والبيرة والذرة المسلوقة والعسل والزبدة والزيت.

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة لأرواح أفراد عائلتك وكذلك لأنثى الماعز وبعدها تردد بعض التراتيل أمام الإله إيديش كيغال وهي: إن الشي (غالو هو اسم مرادف لأشيبو) هو أخوه.

وينبغي معاملة أنثى الماعز باحترام كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تدفنها.

إن كلمات التوجيهات الطقوسية تبدو وكأنها تشير إلى أن هناك اثنين قد اشتركا في القيام بالطقوس:

: الأشيبو المذكور بلقبه شخص آخر يخاطب بكلمة أنت، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو (بارو) الكاهن الذي كان يهتم بالمرض دائماً. : فإن النصوص من هذا النوع لها تاريخ طويل على طريق

التطور، وإن تغيير الكلام من أنت إلى هو ربما كان نتيجة إضافات تدريجية. وهكذا فمن الممكن أن تكون كل التعليمات متوجهة إلى الأشيبو، وليس هناك من مجال للشك أن العمليات المذكورة في الطقوس المنقولة ما هي إلا شؤون

صحية تختص بالسحر، فالرجل المريض متطابق ومتماثل مع أنثى الماعز الصغيرة مع اختفاء صفة الحتمية على أنثى الماعز.

ويفترض أن يكون لحياة أنثى الماعز الصغيرة تأثير عن طريق الحقيقة المجردة وهي وجودها.

ولكن لم تذكر قضية الدين بمعنى التقرب إلى الآلهة للحصول على تدخلها الرحيم في مصير حياة الإنسان.

ومع أنه لم يرد اسم إيديش كيغال آلهة العالم السفلي، ولكن ليس هناك أي أقل الدلالات بوجود أي تقرب لها كآلهة تمتلك بعض العلاقات مع البشر، ومن الممكن الاقتراب منها سواء بقصد الاسترخاء أو التضرع.

هذا وإن تقديم اسم الآلهة إيديش كيغال لا يبدو أكثر من علاقة طفيفة باتجاه الإيمان بالآلهة ذات التوجه البشري المستعمل كاصطلاح مضاف لقوى الشر التي لا يمكن تسميتها أو معرفة وجودها، وقوى الموت التي كانوا يودون خداعها عند القيام بأداء الطقوس.

فنحن نعرف فعلاً المناسبة التي أتم فيها الطقس المشار إليه، فقد كان هناك الطقس بالنيابة عن ولي العهد الذي كان مصاباً بالحمى، وهذا المرض قد عزي الأشيبو حصوله لاقتراح بعض الذنوب (ربما كان الذنب خرق الطقوس الدينية) بالنسبة للملك نفسه.

وهناك مثال آخر عند وقوع النشاط السحري الذي يقوم به الأشيبو وهو يتلخص بالمقتطفات التالية من رسالة أرسلها الأشيبو الرئيس إلى الملك:

بشأن طقوس الابتهاال التي تسمى: ((حقاً أنت الشرير)) التي أرسل إلى سيدي الملك رسالة بشأنها فهذه الطقوس تتم من أجل طرد الشيطان الشرير (آلو) وطرد المرض الطارئ وهو مرض السقوط (وهو يعرف على العموم باسم مرض الصرع).

إذا كان حصل للمريض شيء ما فإن الأشيبو سوف ينهض ويعلق فأرة وغصناً من شوكة الجمل على باب عتبة البيت، ولسوف يرتدي الأشيبو ملابس حمراء،

ويضع قناعاً أحمر، ولسوف يحمل غراباً بيده اليمنى، وصقراً بيده اليسرى،  
وبعدها ينشد نشيد الابتهاال: ((حقاً أنت شرير)).

وبعد الانتهاء فإن الأشيبو يصاحبه أشيبو آخر يقومان بدورة حول فراش  
المريض وإلى جانبيهما مبخرة ومشكل، وبعدها سوف ينشد نشيد الابتهاال: ((أيها  
الشیطان هولتوبو اغرب عن أنظارنا)) حتى يصل إلى الباب، وبعدها توضع تعويذة  
على الباب.

وينبغي أن يكرر هذا الابتهاال صباحاً ومساءً حتى يُطرد الشيطان، والواضح  
من النصوص النموذجية التي ذكرت أن اسم الطبيب الساحر هو أكثر ملاءمة  
للأشيبو من اسم الكاهن، ذلك لأن ألبسته فضلاً عن الطقوس قد خدمت  
للإقناع، فإن قدرته على طرد الآثار السيئة ما هي إلا خرافة من الخرافات.

إذ إن الثوب المستعمل عند أداء أنشطته الرسمية كان ثوباً أحمر، وهذا  
وبالنسبة إلى عدة ثقافات هو الذي يخدم قضية طرد الشياطين والعفاريت.

وبالنسبة لبعض المراسيم فقد أعطي النخس الغربية المستهجنة، وذلك لوجود  
القناع الذي ليسه.

وتذكر النصوص الخرافية أنواعاً مختلفة من المخلوقات الهجينة النغلة مثلاً:  
الرجل السمكة، ورجال العفاريت ذات الصفات السحرية، ونرى على بعض  
الأنصاب الآشورية رجالاً يلبسون أقنعة تجعلهم يظهرون وكأنهم رجال سمك، أو  
رجال أسود، وما شابه ذلك.

وتختص هذه التمثيلات بالطقوس السحرية وكان الرجال الذين يرتدون  
الأقنعة ليسوا أكثر من أشيبو وكهنة وهم يمارسون أعمالهم.

لقد عمد الإنسان في معظم المجتمعات لإيجاد وسائل تمكنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل.

ولم يكن أهالي ما بين النهرين شواذاً عن هذه القاعدة، ولقد اخترع كثير من تقنيات العرافة للتنبؤ عن ما سوف يحدث، وتعود بعض هذه إلى الألف الثالث ق.م في منطقة سومر، وربما كانت أصولها حتى أقدم من أزمنة ما قبل التاريخ، وقد ازدهرت هذه المظاهر في آشور في الألف الأول ق.م.

وتظهر أهمية هذه الوسائل لمعرفة المستقبل والثقافة الآشورية عن طريق ما نراه من محتويات المكتبات التي أسسها ملوك آشوريون مختلفون، وعلى الأخص آشور بانيبال والتي بناها في نينوى.

ولقد اكتشفت هذه المكتبات في القرن الماضي، ووجد أنها تحتوي حوالى (١٢٠٠) من الأعمال الأدبية القديمة المختلفة، ومنها حوالى ثلاثمائة مختصة بالعرافة والتنجيم.

ومن وجهة نظر شعب ما بين النهرين القديم كان شكل العرافة من أعلى المستويات مرتبطاً ببعض الكهان المعروفين باسم (بارو)، مع أنه وفي حوالى نهاية الإمبراطورية الآشورية الجديدة تخلت العرافة عن وضعها المرموق وتركته للتنجيم. وقد كان البارو ومنذ أقدم الأزمنة مترافقاً مع تقنيات مختلفة ولكن مرافقته كانت تجري بشكل أساسي عن طريق فحص الأعضاء الداخلية المهمة في الحيوانات المذبوحة والمضحى بها.

وكانت تفاصيل هذه الإجراءات تختلف من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، ومن مكان إلى مكان، ولكن وبصورة أساسية إن ما كان يحدث في دولة آشور في الألف الأول قبل الميلاد كان كما يلي:

يُكتب سؤال على لوح من الغضار، ويوضع هذا اللوح أمام الإله، وبعد ذلك كانت تُذبح غنمة وتفحص أعضاؤها الداخلية، وبعدها يصل تقرير الإله وتفسيره

على افتراض أن الإله قد وضع جوابه على الأعضاء الداخلية للحيوان بشكل صور وأشكال خاصة، مثلاً الحجم والألوان والبقع وغيرها من المظاهر الشاذة.

وكان للعرافين مفاتيح بشكل نماذج من الغضار للأعضاء الداخلية (ولاسيما الكبد) وهي تدل على المظاهر الموجبة، والمظاهر السالبة.

وقد كانت المظاهر الموجبة والسالبة بدقّة، ويكون الجواب الذي وضعه الإله مختلفاً حسب غلبة الموجب والسالب.

لدينا النصوص الفعلية لبعض الأسئلة التي كان الملوك الآشوريون يطلبون الإجابة عليها من خلال تقنيات (البارو) وفيما يلي جزء من هذه الأسئلة:

آه- يا شمش، أيها السيد العظيم، أجبني بتأكيد حازم عن المسألة التي أسأل عنها.

أجبني بتأكيد حازم

وابتداءً من هذا اليوم وهو الثالث من شهر الإرحتى

الحادي عشر من شهر آب من هذا العام

خلال هذه الأيام المائة والليالي المائة وهي أنضرها

المعنية بقضية الاستئصال.

هل سيقوم جنود السيمريين أو الميديين أو المانيين أو أي عدو آخر مهما كان

بمحاولة القتال أو التآمر ضدي؟

وكان الكهنة البارو يحضرون مشهد العرافة عن طريق عدة تحضيرات ذات

طبيعة سحرية، مثلاً: مضع خشب الأرز، أو حرق البخور، وعمل التعاويذ وهمسها في أذن الحيوان المضحّى به.

ومن الواضح أنه وتحت سطح إجراءات تبدو أنها تطلب النجدة من إله ذي

شكل بشري، وتطلب الجواب، هناك شيء أكثر بدائيةً ولكنه ليس ذا طبيعة

إلهية، وهو الاعتقاد بقوى غير مشخصة وخارقة ولكن يمكن السيطرة عليها

بواسطة أساليب سحرية.

وشأنه شأن الكالو والأشيبو كان البارو بحاجة لاستعمال النصوص المسمارية خلال أنشطته المهنية، ولذلك أصبح ينتمي إلى تلك الأقلية المثقفة مع جميع الفوائد التي تجعله قادراً على الاقتراب من الدولة، ومن إدارة المعابد.

والحقيقة أن البارو كان منتمياً إلى الشريحة العليا من المجتمع، ونحن نعلم مثلاً عن جماعة من (البارو) كانوا أبناء (الشانجو) وهناك نص مسماري يذكر: إنه ليس بإمكان أحد أن يصبح (بارو) ما لم يكن خالياً من العيوب الجسدية، وأن يكون من أصل حُرّ.

ولم يكن من الضروري أن يكون البارو موظفاً في المعبد أو موظفاً في الدولة، مع أن طبيعة عمله كانت تقتضي أن يخدم المعبد، أو يخدم الملك. وبالنسبة للمناسبات المهمة كان أفراد البارو يعملون بشكل مجموعات، ويشير كثير من الملوك الآشوريين إلى عدد من عرّاف في البارو مشتركين في عمليات الاستئصال وكانوا موزعين بشكل فرق.

لدينا مجموعة لا بأس بها من الرسائل أرسلت إلى الملك الآشوري من قبل رجل كان يدعى البارو الرئيسي، وقد خدم هذا في هيئة الموظفين الملكية مع المسؤولية لتتظيم أحوال زملائه من البارو الآخرين، وقد منحت له قطعة من الأرض كأجر من قبل الملك.

وكان البارو الرئيسي المذكور يعمل في مكتب متواجد في القصر الملكي، ولكن لم يسمح لكل بارو يعمل في خدمة الملك أن ينجز أعماله في خدمة القصر أو المعبد، مثلاً: كان هناك بعضهم يخدم في الجيش الملكي، وكان مستعداً لإنجاز بعض الطقوس، وإعطاء القرارات عن طريق العرافة عندما يطلب منه ذلك.

وكان بعض (البارو) يَضْعُونَ خدماتهم تحت تصرف أناس عاديين، وكانوا يخدمون أغراضاً خاصة كالكشف احتمالات الأمراض، وعندها كان البارو يتعاون مع الأشيبو.

لقد اعتبرنا البارو أولاً: بأنه يمثل أعلى طبقة من طبقات العرافين، ولكن كان هناك قياسات أخرى متعددة، مثلاً: هناك قائمة من المحترفين تذكر فئتين تدعيان: شا إيكو، وماهو، فضلاً عن الأشيبو البارو.

لا نعرف إلا القليل من المعرفة التفصيلية عن الشا إيكو وذلك من أخبار آشور في الألف الأول، وربما كان ذلك نظراً لأنه هو أو هي (لأن المرأة تستطيع القيام بهذه الخدمة) قد أصبح منحصرأً بالشريحة الدنيا من المجتمع، بحيث إنها لم تذكر في النصوص المسمارية الباقية التي تعكس وبصورة رئيسية مصالح الشريحة العليا المثقفة.

وفي مستهل الفترة الآشورية المتأخرة كان (الشا إيكو) وبصورة خاصة الإناث من هذه الشريحة متخصصين بتفسير الأحلام، واستحضار الأرواح بحيث وبسبب حاجتنا إلى شواهد أكثر تفصيلاً ربما افترضنا أن هناك مشتركاً ما بين الشا إيكو وساحرة (ايندور المذكورة في التوراة).

ولكن معرفتنا بالماكو تفوق معرفتنا بالشا إيكو، وبموجب علم اشتقاق الألفاظ فإن هذه الكلمة تعني: الشخص المصاب بجنون مؤقت.

وإن الشخص الموصوف بهذا الوصف هو الشخص الذي يقع في حالة من الانجذاب بحيث يعطي بعض الرسائل القادمة من الله.

وهناك عينات من الذكور والإناث المصابين بهذا المرض وهم يكونون هيئة موظفين في المعبد أو أشخاصاً عاديين.

وهناك أوصاف أخرى متعددة استعملت في بلاد آشور للدلالة على أشخاص من هذا النوع، وكانت رسائلهم النبوية على نسق أولئك المذكورين في العهد القديم والذين وصفت نبوءاتهم بأنها نبوءات أنبياء كاذبين (كما ذكر في سفر الملوك في التوراة) وكانت هذه النبوءات تمثل الموافقة على أعمال الملك وتشجيعه.

ولقد كان ملوك آشور يقدرّون تلك النبوءات ويأخذونها على محمل الجد ، بحيث إنه في إحدى المعاهدات مع أحد الأمراء التابعين عمد الملك اسرحدون على ربط الأمير التابع بتعهد أن لا يخفي أي كلمة يلفظها أي شخص يعرفه.

وكان باستطاعة (الماكو) الاشتراك في حفلات المعابد ، ومن المظنون أن ذلك الاشتراك يتم بشكل يكون فيه هذا الشخص أحد الدراويش.

وكان هناك نوع آخر من العرافين الذين نشطوا في الألف الأول قبل الميلاد في آشور ، مثلاً نسمع باسم ملاحظ الطيور ، وهو شخصية رسمية يخدم الملك بأن يقدم تقاريراً للملك تحتوي على تنبؤات فلكية مأخوذة من حركات الطيور.

وتحتوي إحدى الوثائق الآشورية قائمة من الأسماء من الممكن تلخيصها بما

يلي:

١٧- أشيبو

٥- باروس

٩- أطباء

٦- كالوس

والآن لا نعد هارتبيي كلمة آشورية وطنية ، فهي كلمة مصرية تدل على مفسّرِي الأحلام ، والكلمات الثلاث التي وجدت كانت كلها مصرية ، وليست آشورية.

ولهذا فمن الواضح أن الملوك الآشوريين قد جلبوا بعض مفسّرِي الأحلام من مصر لإضافة هؤلاء إلى ما عندهم من جماعة المتنبئين بالمستقبل.

كانت أكبر الوسائل البارزة للتنبؤ بالنسبة للدولة وأغراضها في حوالي نهاية الإمبراطورية الجديدة هي علم التنجيم، وكان هناك عدد كبير من الخبراء في هذا العلم من الذين كانوا يقدمون تقارير بانتظام إلى الملك حيث يذكرون ملاحظاتهم لأوضاع القمر والكواكب والنذر التي يلاحظونها.

وينبغي أن نشير إلى أن علم التنجيم في آشور كان مختلفاً عما نفهمه من هذا الاسم في هذه الأيام وإذ إن ما يذكر من هراء عن علم التنجيم في هذه الأيام إنما يُفترض فيه إخبار عن مصير الأفراد من خلال شعوذة مؤسسة على مراكز الأجرام السماوية في الزمن الذي ولد فيه هؤلاء الأفراد.

ولكن علم التنجيم الآشوري ومع أنه خال من الشعوذات إلا أنه لا يلتزم إلا بأخبار شؤون الدولة وليس الأفراد (عدا العائلة المالكة ضمن الوضع الذي تتجسد فيه الدولة في الملك).

ولقد أتت التنبؤات من تطبيق التفسيرات التقليدية على الحوادث الجارية والسماوات مثلاً: حوادث الخسوف والكسوف، والحلقات حول القمر، أو أوضاع الكواكب، ويأتي ضمن هذه المقولة الرعد والهزات الأرضية، ومن الممكن فهم طبيعة علم التنجيم الآشوري بالنظر إلى بضعة أمثلة وكلها بشكل تقارير موجهة إلى الملك.

عندما يُرى القمر في اليوم الثالث عشر فإمّا سيكون هناك صقيع أو أن يسمع صوت العدو.

وعندما يعيد ملاحقة القمر يظهر هذا عالياً في السماء فإن العدو سوف يستولي على البلاد بالقوة.

وعندما يصبح القمر مرثياً في وقت أبكر من ميعاده فسوف تظهر الاضطرابات في هذا الشهر.

وهنا نورد تفاصيل أوفى:

في هذه الليلة أحاطت هالة بالقمر ويظهر كوكب المشتري وتكون كوكبة العقرب في داخلها ، وعندما تحيط بالقمر هالة ويصبح كوكب المشتري في داخلها فإن ملك أكاد سوف يُحاصر ويطلق عليه.

وعندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع المشتري داخل هذه الهالة فسوف تحدث جائحة تسبب موت قطعان المواشي والحيوانات البرية.

هذا وإن نجمة الإله مردوخ عند رؤيتها لأول مرة هي:

**S U L-PA.E** وعندما يشرق مدة ساعة مزدوجة يكون في حالة:

**S A G. M E-NIG** وعندما يتوضع في منتصف السماء فهو نيبورو .

وعندما تحيط هالة القمر ويتوضع العقرب في داخلها فإن الكاهنات سوف يتصلن اتصالاً جنسياً مع الرجال ، أو أن الأسود كما تقدم شرحه سوف تخرب وتقتل الطرق في البلاد.

وتأتي التنبؤات الفلكية من السلسلة التالية:

عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري (**SUL.PA.E**) داخلها ، فإن ملك الأراضي الغربية سوف يمارس القوة ويخرب بلاد عدوه ، وهي نذير شؤم.

إن ما ذكر أعلاه يتطلب بعض التفاسير ، فالظاهرة الأساسية التي لوحظت واضحة قد كانت هناك حلقة حول القمر تتضمن أجراماً سماوية مضيئة ، ويظهر أن المنجم قد فتش عن معاني تلك العلام في السلسلة (أي: في كتاب النصوص) الذي يرجع إليه في النهاية ، وشأنها شأن النصوص المسماة القديمة فقد سميت هذه السلسلة باسم السطر الأول.

وهو يفسر المسألة وهي: إنه ومن وجهة نظر علم التنجيم فإن الكوكب نفسه وهو المشتري تطلق عليه عدة أسماء طبقاً لعلوه في الأبراج ، وهو يفوق ذلك بإعطاء تفاسير مناسبة لوضعين مختلفين.

وقد عمد الباحثون الأولون الذين ألفوا كتب النصوص إلى وضع بعض المعوقات ، وذلك بتقديم تفاسير اختيارية بالنسبة لكوكبة السرطان ، وهكذا

أصبح مجال الاختيار والتنبؤات غير المواتية مما يجعل المنجم يستنتج أن الظاهرة التي رآها إنما تعني شيئاً سيئاً بالنسبة للدولة.

وكان هناك بعض التقارير الأكثر إيجازاً وأكثر وضوحاً، مثلاً: عندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع قلب الأسد **Regulus** في داخلها فإن النساء سوف تلد في تلك السنة مواليد من الذكور.

ففي هذه الحالة والحالة التي كانت قبلها فإن الظاهرة المذكورة هي ما شاهده المنجم، وقد أطلق الاسم فوراً وذلك بقصد الاقتصاد بالكلمات.

وأخيراً إننا سوف نقتبس جزءاً صغيراً مأخوذاً من تقرير طويل مختص بالتنجيم وذلك من أجل التعليقات الاجتماعية التي يحتوي عليها، وهو يقول:

((عندما يصل القمر إلى الشمس ويسير جنباً إلى جنب معها، أي: إن القرن سوف يعانق القرن فسوف تتحسن أحوال البلاد السلوكية، فالابن سوف يصدق مع والده)).

وهنا من الممكن أن نفترض أن الوضع في ذلك الوقت كان عكس ذلك.

تحتوي بعض التقارير التنجيمية معلومات عن الطقس ربما كانت مؤسسة أصلاً على الملاحظة مثلاً: عندما يسمع الرعد في شهر أيار فإن القمح والخضروات سوف تسوء منتوجاتها.

أو عندما يسمع الرعد في شهر شباط فسوف تمر على البلاد نقمة الجراد.

((وعندما نسمع صوت الرعد في شهر شباط فسوف ينزل البرد)).

وفي هذا التقرير الأخير فإن المنجم يقتبس تنبؤين فلكيين مختلفين قد وجدتهما في مجموعة النصوص، خاصة والتي تعود إلى شهر شباط، وإن الإشارة إلى نزول البرد في شهر شباط ما هو إلا نتيجة الملاحظة، فالرعد في شهر شباط غالباً ما يتبعه نزول البرد.

ومن المحتمل أن يكون هذا التنبؤ غير صحيح نظراً لوجود علاقة عرضية فإن توارد العواصف الرعدية مع درجات الحرارة في شهر شباط يؤيد في العراق سقوط ترسبات بشكل بارد.

أما التنبؤ حول جائحة الجراد ربما أتت من ملاحظة بعض الأشخاص أنه وفي بعض المناسبات فإن الرعد في شهر شباط كان يتبعه هجوم جائحة الجراد، وفي هذا المجال ليس هناك من علاقة عرضية بين الحادثتين.

وقد نشأ التنبؤ على أساس الجملة اللاتينية التي فحواها: ((إن هذا يتبع ذلك، لذلك فإن هذا قد كان نتيجة عن ذلك)).

ومع ذلك فإن معظم التنبؤات كانت على أساس مختلف عن هذا، وهذا نوع من الرمزية، ويمكن للمرء أن يرى كيف يحدث ذلك من المقطع المذكور أعلاه الذي مفاده:

((عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري داخلها فإن الملك الأكادي سوف يُحبس)).

وكان المشتري هو كوكب الإله مردوخ، وكان مردوخ هو إله البابليين، وكانت بابل هي عاصمة المملكة البابلية المعروفة باسم: أكاد بلغة المنجمين.

وإن الكلمة الأكادية التي نترجمها بمعنى: هالة، يمكن استعمالها أيضاً بمعنى: حظيرة لحفظ الماشية، وهكذا فإن رؤية الكوكب المشتري في داخل هالة القمر يوحي بأن القوة العظمى في بابل كانت في داخل الحظيرة التي سوف تمثل الوضع إذا أصبح ملك بابل تحت الحصار.

وبشكل مشابه فإن التنبؤ الذي يشير إلى أن القمر قد وصل إلى الشمس وسار جنباً إلى جنب معها، وأن الابن سوف يصدق مع والده، إن هذه الحقيقة تقدم نوعاً من الرمزية إلى الأب والابن اللذين ينبغي أن يبقيا على وئام وسلام.

لقد سببت ظاهرة الخسوف والكسوف الذعر والخوف بالنسبة للأقوام البدائية وأحياناً لغير البدائية، وطبقاً لذلك فقد كانت ظاهرة الكسوف تدل على فأل سيئ.

ومع ذلك فكان من الممكن أن يخترع المنجم تفسيراً للخسوف والكسوف لكي يوفر على الملك شيئاً من القلق.

وهكذا نجد ما يلي:

((لقد حان وقت الخسوف، ولكنه لم يلاحظ في آشور إذ إن ذلك الخسوف قد تجاوز آشور تلك المدينة التي يعيش فيها الملك.

فقد كان هناك غيوم في كل مكان بحيث لم نعرف أن الخسوف قد حدث أم لم يحدث، ألا فلندع الملك يرسل الرسائل إلى آشور وإلى جميع المدن في كل مكان - إلى بابل، وإلى نيبور، وإلى العريش، وإلى بورشيبا، إذ ربما قد لوحظ خلال تلك المدن، وليسمع الملك التقارير المنتظمة.

فلقد عمد الآلهة في المدينة التي يعيش فيها الملك إلى تعقيم السماء، وهكذا لم يظهر الخسوف، وهكذا فإن الملك سيدي من الممكن بالتأكيد أن يتحقق من أن هذا الخسوف لم يكن ضد سيدي الملك، أو ضد أراضيه وهكذا فليظل الملك سعيداً.))

وهكذا يقرر المنجم أنه سواء حدث الخسوف أم لم يحدث فإن الدلالة مناسبة بالنسبة للملك.

(ومن الممكن أن نلاحظ أيضاً أنه من الغرابة في الزمن الذي نحن بصدده كان المنجمون يعرفون معلومات كافية حول حركة القمر بحيث استطاعوا التنبؤ بالخسوف القمري الذي يحدث عادة كل ستة أشهر، ومع ذلك وبسبب الأفكار المحافظة الخرافية كانت لا تزال تعد ظاهرة الخسوف دلالة على الفأل السيئ).

وكان هناك مظهران لهذه التقارير التنجيمية:

: أن يقدم للملك إنذاراً وتحذيراً من الحوادث القادمة وهي ذات أهمية بالنسبة للدولة.

: فهو لإعطاء الفرصة لإتمام شعائر الطقوس وذلك لتجنب أي حوادث سيئة قد أذرت بها هذه التقارير، ولقد اعتنى جماعة الموظفين الأشيبوس بهذا المظهر الثاني.

ربما يلاحظ القارئ أنه مع أننا لا نزال نعالج القضايا الدينية في هذا الفصل من فصول الكتاب إلا أنه قد مضت صفحات وصفحات دون ذكر أي شيء عن الآلهة.

وهذا مكان مناسب لإيضاح الانعكاس الذي كانت الآلهة تشغله في الموقف الآشوري تجاه الحياة.

ولقد بدأنا مناقشاتنا حول الديانة الآشورية بالتحدث حول طبيعة الآلهة العظام، ولكن هذه المقاربة إنما هي نوع من التنازل لطريقتنا في التفكير حول دور الدين في المجتمع.

وبالنسبة للرجل الآشوري العادي فإن الآلهة العظام لم تكن هي الجزء من العالم الذي يمثل ما وراء الطبيعة الذي كان متأثراً به إلى درجة عظمى، مع أنه عندما قبل السيطرة على ذلك العالم الذي يعيش فيه مع الآلهة العظام، فإن تماسه الشخصي السريع بتلك الكائنات الإلهية ربما أصبح ضئيلاً جداً.

ولكن لم يعن هذا أن الرجل الآشوري العادي سوف يهمل عالم ما وراء الطبيعة، بل لقد كان عالم ما وراء الطبيعة هو كل ما كان حوله وقد أثر في حياته بكل معنى الكلمة.

وهكذا فإذا أصابه المرض بسبب الشياطين أو ربما كان شراً من الشرور التي تهاجمه، وإذا فقد ولداً من أولاده فإن الشياطين هي السبب، وهو يرى القوى الشريرة من عالم ما وراء الطبيعة هي التي تعمل.

ولكنه لم يرَ أي قرار من قرارات الآلهة العظام، فلم يكن هناك إيمان توكلّي عميق بوجود الأهداف الإلهية التي تسمح للآشوري أن يقول عندما تصادفه مصيبة فادحة: ((إن الله قد أعطى، والله قد أخذ)) ومبارك هو اسم الرب، ولقد دخل الآلهة العظام في هذه القضية كقوى تستطيع إذا تم التضرع إليها ومناشدتها أن تحيط بالبشر الناجم عن القوى الشريرة.

لقد رأى الآشوري العالم المحيط به مليئاً بالقوى التي تؤثر فيه، وهكذا نحن عندما نعد الفيضان الحاصل من النهر أو العاصفة كقوى طبيعية أو نرى الأمراض ونعتبر أن سببها فيروس في الخلايا.

إلا أن الآشوري كان يعد كل هذه الظواهر من عمل مشيئة خارجية، ويعتقد الشخص الآشوري أنه لا بُدَّ من وجود كائنات تتحكم بالفيضان والعواصف والأمراض.

وفي حالة وجود قوى عظيمة تؤثر في جميع أنحاء العالم وهي تؤدي نوعاً من وظيفة واضحة ومفهومة في تخطيط ونظام الأشياء، مثلاً نظام العواصف أو حركة الشمس، فقد بدا واضحاً بالنسبة للآشوري أن المشكلات التي تنشط هذه القوى ينبغي أن تكون عقلانية، وقد أصبحت هذه المشيئات مشخصة بشكل آلهة تتصف بجميع الصفات الحسنة، والصفات السيئة للبشر ولكن على مقياس أوسع. ولكن حدثت بعض الأشياء غير العقلانية والمستبدة فقد كان الأطفال المولودون حديثاً سرعان ما كانوا يهزلون ويموتون، أو كانت الأمهات تصاب بنوع من التفريغ ذي الرائحة الشديدة بمصاحبة الحمى والهديان، وتنتهي بموت مؤلم.

وكان باستطاعة الآلهة العظمى القتل، ولكنها كانت تقتل وعندها غرض وهدف من هذا القتل إذ إن هذه الوفيات المتعمدة من الأطفال والنساء وعند الولادة كانت ليست بذات معنى، ولا يمكن أن تكون إلا فعل شيطان شرير.

وقد كان هذا المجرم يتمثل باسم امرأة من الشيطانات تدعى لاماتشو التي لم يكن لها أي وظيفة في هذا العالم سوى مهاجمة تلك الضحايا العاجزة والمسالمة.

كانت لاماتشو الأكثر شهرة ولكنها لم تكن الشيطانة الوحيدة، فقد كان العالم مليئاً بمثل هذه الكائنات اللعينة، فقد كانت أي مصيبة أو إزعاج أو شذوذ ذي طبيعة عرضية تصيب الإنسان إنما كانت من عمل أحد الشياطين.

ولكن ليس من الصحيح أن نقول: إن الشياطين ما هي إلا مصائب مجسدة، ولكن كانت بعيدة عن أن تكون مجسدة تماماً، ولكن بعضها كان من الواضح أنها كانت لا جنسية أي: بدون جنس، أو بدون اسم، وبدون شكل وكانت مفتقرة لبعض الخصائص التي تثبت أنها كانت وكما تقول بعض النصوص: لم يكن معترف بها من قبل الآلهة الحكماء.

ولم تكن الشياطين عبارة عن مصائب مجسدة بل كانت عبارة عن إرادة سيئة عملت على تنشيط الكوارث والمصائب.

إن هذا الموقف بالنسبة إلى الحياة يُؤلف الأرضية للأنشطة السحرية للأشيبو وكان النفوذ الهائل لهذه الطبقة من السحرة لدى البلاط الملكي أو لدى الشخص الآشوري العادي كان سببه وجود الأشيبو بطوقسه التي كانت مفتاحاً لطرده الآثار المشؤومة لتلك القوى الخارقة للطبيعة، التي كانت تحيط بالشعب الآشوري سواء كان الملك أو أي رجل عادي من كل الجهات.

ولكن بتثنية نوع من التوازن كان هناك اعتقاد مقابل بوجود الأرواح الخيرة التي يمكنها أن تسكن في بيت وتحميه، وأن تحمي البناية، أو ترافق وتحمي أي إنسان، ونحن نجد هناك تصريحاً يتناول قضية الرجل الذي يعمل كما يريد ((أن الآلهة سوف تقدم له (شيدو) وهو نوع من الملاك الحارس الذي يعتني به)).

أما في بابل فإن المصطلح المستعمل للدلالة على الروح الحامية هو (إيلو) أو (عشتارو) ولما كانت هذه الأسماء تدل على الإله أو الآلهة، فإنه غالباً ما يقال: إن لكل إنسان إلهاً شخصياً أو آلهته الشخصية، ولكن مع استثناء الملك فإن ما يدعى بالآلهة الشخصية أو الإلهات لم يكونوا أعضاء رسميين في مجتمع الآلهة، وبذلك تصبح كلمة ((الروح الشخصية الحامية)) هي الانعكاس الدقيق والصحيح لذلك المفهوم الكامل.

لقد استخدم الأشيبيو سحرة لحماية البشر من القوى فوق الطبيعية، أو الشرور التي تحيط بالإنسان، ولكن كان هناك بعض الناس الذين كانوا يستخدمون تقنيات محددة لتوجيه تلك القوى ضد الكائنات البشرية، وكانت هذه الكائنات الشريرة وهي الساحرات والسحرة الذين كان باستطاعتهم سحر الناس، وإرسال الأرواح الشريرة ضدهم وأن تفصلهم عن الأرواح الخيرة وتجلب لهم أي نوع من أنواع سوء الطالع أو المصائب.

ولدينا سلسلة طويلة من النصوص التي تعطي السحر المضاد ضد هذه الأعمال السحرية، ومن الغريب أن نجد أحد الباحثين الذي لم ينجح في فهم الدور الذي يتم في كل المجتمعات عن طريق الإيمان بوجود السحرة في مجتمعات عديدة، فحاول أن يعزو إيمان الآشوريين بالسحرة إلى نوع من الهوس النفسي، أو الهذيان، وعلى هذا الأساس فإنه يدعي أن النصوص التي تذكر السحر المعاكس ضد السحرة كانت من أحد الكتب التي تبحث في الطب النفسي عند البابليين.

والحقيقة أنه كان هناك بضع حالات تزعم أهالي منطقة ما بين النهرين قد فكر بها هؤلاء أنها مسببة عن السحرة ولكنها بالنسبة لنا نعتبر بأنها حالات مناسبة للطب النفسي، ولكن كان كل إنسان في منطقة ما بين النهرين يعتقد بوجود السحر، وإن عزو المصائب والكوارث والأمراض إلى السحر كان من الميزات الثقافية، وليست قضية هوس نفساني.

ولم يعد لدى البابليين أي علم مختص بالطب النفسي بالقدر الذي لم يكن لديهم أي معرفة بعلم الفيزياء النووية.